نحو قراءة ابستيمولوجية لمشروع الاستغراب عند حسن حنفي

صافي الطاهر(*)

يحظى التراث العربي الإسلامي بأهمية كبرى سواء عند المفكرين العرب المعاصرين أو المفكرين الغربيين، وذلك في إطار استنهاض الوعي العربي الإسلامي وتجديده بالنسبة للطرف الأول، ومن أجل فهم ثقافة الآخر وبالتالي شخصيته بالنسبة للطرف الثاني، وقد أدى هذا الاهتمام إلى بروز مشاريع نهضوية متباينة في فكرنا المعاصر، وقراءات يغلب عليها الطابع السجالي تارة والمعرفي تارة أخرى، وذلك إن على المستوى المنهجي أو المستوى الرؤيوي، لكنها جميعا تريد الغوص في ابستميات التراث واقتحام قداسته لتحقيق الإنسجام الراهني. وهذا التراث نفسه هو السلم الذي تسلقه الفكر الغربي خاصة في القرن التاسع عشر، وبنى على أساسه أنساقه المعرفية المختلفة، لكنه إلى اليوم لم يركنه جانبا بل ربما توسعت دئرة الاهتمام به أكثر بعد أن أصبحت معاهد ا لدراسات الشرقية حاضرة في كل الجامعات الغربية تقريبا، وبعد تغلغل بعض النظريات الفلسفية في وعي النخب والعموم، نهاية التاريخ صدام الحضارات الإسلامو فوبيا...

- إن التنقيب في التراث يجعلنا نكتشف ذاتنا التي قد تبدو صغيرة وضئيلة أمام اجتهادات السلف و إبداعاته وهذه الذات مع صغرها لا تملك خيارا أمامها إلا الإنحناء وتقديم القرابين لهذا التراث من جهة، او تعمد إلى بناء فكر مرتبط بعصرها ومنفتح على أسئلته، وما يترتب عن ذلك من مجابهة نقدية وفق منطق الحاضر من جهة أخرى، لكن هل تحقق فعلا هذا المنطق النقدي في فكرنا العربي المعاصر؟ و إلى أي مدى تمكنا من تجاوز الإيديولوجي إلى الابستيمولوجي؟؟

(*) أستاذ الابستيمولوجيا المساعد بجامعة سكيكدة - الجزائر - Tahar.safi@gmail.com.

- قد نتعرف في فكرنا المعاصر على اجتهادات أسست ومارست النقد المزدوج كما يسميه (عبد الكبير الخطيبي) وحاولت تحديد الموقف من التراث ومن الحاضر في نفس الوقت المتمثل في الوافد الغربي وما يحمله من حداثة تقنية ومعرفية وهي في اعتقادي إسهامات جادة تهدف إلى تجذير منطق العقلانية في خطابنا الفكري ضمن ما يسمى (عودة الوعي) بضرورة الاهتمام بالتراث، ومن ثمة الدخول في فعل التثاقف مع الآخر.

ومن هذه الاجتهادات المتبنية للنقد المزدوج ما نجده عند عبد الله العروي والجابري وحسن حنفي وغيرهم، طبعا مع بعض التفاوت بين هذه الطروحات، لان هناك تيار القطيعة التاريخية والابستمولوجية الذي يمثله العروي مثلا وبعض تلامذته النجباء كعزيز العظمة وهناك تيار العقلنة من الداخل أو الاستمرارية التاريخية كما يمثله الجابري وحسن حنفي وآخرون.

في هذه الورقة نريد اختراق موقع حسن حنفي الذي لا يختلف كثيرا عن الجابري في كيفية إدراكه للأنا وفهمه للأخر رغم الفوارق المنهجية بينهما، فالأنا والآخر حسب حنفي حقيقة لا يمكن تخطيها مادام الاختلاف والتعدد سمة إنسانية متجدرة عضويا في البنية المجتمعية ويعبران عن علاقة جدلية لابد من استنطاقها وتفكيك رمزيتها التاريخية من أجل إحراز تأشيرة المرور إلى المتاقفة المتجاوزة للمسلوبية، والمعبرة يصدق عن معقولية الحوار والتواصل.

ينطلق حسن حنفي إذن في مشروع الإستغراب من محاولة التأسيس لعلم جديد هو الإستغراب تماهيا مع الاستراق دفاعا عن تراث الأنا ودرءا لخطر المسلوبية والذوبان في الآخر فما المقصود بهذا العلم وما هي أهدافه وكيف نقرأه؟؟

الإستغراب أو الإستشراق المعكوس

كلمة الاستغراب في الدلالة الاصطلاحية تقابل الاسشراق، وتستقي معناها منه بدلالة المقابلة فإذا كان الاستشراق هو دراسة ثقافة الشرق فإن الاستغراب هو دراسة ثقافة الغرب، والمستغرب بالتالي هو من يتبحر في علوم وثقافة الغرب وقد جاء الإستغراب عند حنفي (occidentalism) في مواجهة التغريب (westernization) وبمعنى ما كما يقصده عدم التبعية الثقافية للغرب.[1] إذ لما كانت الأمة بكاملها.

---

(١) حسن حنفي - مقدمة في علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط٢، ص ١٨.

obeikandi.com

محاصرة -كما رأى- بمظاهرالتغريب في لغتها، ثقافتها وسلوك أفرادها، فإن علم الإستغراب يأتي في حينه لمواجهة هذا الإنسلاخ «ويهدف علم الاستغراب إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب، النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخـر..».[١] فإذا كانت الجبهة الأولى عنده أو (الموقف من التراث القديم) مهمتها تثبيت ركائز الشخصية القومية، فإن الجبهة الثانية أو (الموقف من التراث الغربي) والذي يعرف بالإستغراب مهمتها تحريك هذه الشخصية ودفعها حتى تتحرر من عقدة النقص اتجاه الآخر. وبهذا المعنى يصبح الإستغراب متماهيا مع الاستشراق .فادا كان الغرب قد ابتكر آلية الإستشراق نظاما معقدا من المؤسسات والأجهزة والممارسات الإيديولوجية لاستعماله كأداة في تنظيم عملية استعباد الشرق وتبريرها، فإن الشرق هو الآخر مطالب بإبتكار الإستغراب من أجل تنظيم عملية تحرره من الهيمنة الغربية[٢]. في الاستغراب تتحول الآنا من موضوع دراسة إلى ذات دارسة، ويتحول الآخر من ذات دارسة إلى موضوع دراسة، وهذا التحول هو الذي يعمل على تحجيم الغرب والقضاء على عقدة التفوق عنده[٣]. إن الاستشراق يمثل مرحلة هيمنة وسيطرة، ووليد ثقافة عنصرية تحتقر ثقافة الآخر وتلغي قدرته على الابداع المعرفي، بينما الاستغراب يمثل مرحلة جديدة، مرحلة انعتاق وهو وليد ثقافة لا تدعي المركزية و إلغاء ثقافات الشعوب الأخرى، ويميز (حسن حنفي) بين النزعة التفوقية الاستعلائية التي تطبع الإستشراق وتجعله بعيدا عن الموضوعية.

وبين النزعة التي تميز الاستغراب، وهي نزعة التحرر وتجاوز عقدة النقص، وبالتالي فهو أقرب من الأول إلى الموضوعية والحياد، حيث يقول «لم يكن الاستشراق القديم محايدا، بل غلبت عليه مناهج تعبر عن بنية الوعي الأوربي التي تكونت عبر حضارته الحديثة... في حين أن وعي الباحث الآن في علم الاستغراب أقرب إلى الشعور المحايد نظرا لأنه لا يبغي السيطرة».[٤] ويمضي حسن حنفي إلى أبعد من هذا عندما يرى في الاستشراق تمجيدا للمركزية الأوربية، والعقل الأوربي المنتصر بينما يمثل الاستغراب اكتشافا للذات و إعادة الأمور إلى

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢) انظر أيضا في هذا الشأن هشام عصيب، تجديد العقل النهضوي، دار الفارابي، بيروت، ANED الجزائر ط١ ٢٠٠٤، ص٤٦.

(٣) حسن حنفي: مقدمة علم الاستغراب، ص ٢٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥.

طبيعتها «مهمة هذا العلم الجديد هي إعادة الشعور الأوروبي إلى وضعه الطبيعي والقضاء على اغترابه».(١) ولذلك فالاستغراب يعد عنده ضرورة ملحة يقتضيها واقع الشعوب العربية الإسلامية التي ترزح تحت الهيمنة الغربية، لاستكمال عملية التحرر و إعادة الاعتبار لذاتها وتاريخها خاصة وأن هذا التاريخ قد زيف على يد المستشرقين، إن بصورة واعية اولا واعية، إن المستغرب عليه أن يقوم باستنطاق الغرب وتعريته عن حقيقته والكشف عن آليات تقدمه، أو بصورة أخرى عليه الغوص في الوعي الأوروبي بالدراسة والتحليل من أجل فهمه و إرجاعه إلى صورته الطبيعية، بدل الصورة المزيفة التي شكلتها عقلية أجيال من المفكرين الأوربيين، إذن فبين الإستشراق والإستغراب كما يرى بون شاسع لأن الأول يهدم ويلغي والآخر بينما الثاني يبني ويحرر ولا يلغي الآخر بقدر ما يسعى لخلق أرضية حوار مشتركة ووضع الأنا والآخر على نفس المستوى من التكافؤ.(٢)

ولكي يبرر حنفي ضرورة الاستغراب وراهنيته يستنجد بالماضي، فيستعرض بعض المواقف من السلف كشاهد على اهتمام الأمة المبكر بهذا العلم أي (الاستغراب) حيث تم اللقاء الأول بين الشرق والغرب، حين بدأت الأنا الحضارية في التشكل ففضلا عن ما تتمتع به من قدرات ذاتية خرجت إلى الآخر تريد لقاحا، وهي علاقة الجدل الأولى بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية اليونانية، التي أنجبت حضارة إسلامية فريدة.

ويمكن أن نرى تمظهرات هذه العلاقة في رأيه من خلال الترجمة أولا التي بدأت إرهاصاتها الأولى في العهد الأموي، ولكنها انتشرت أكثر في العهد العباسي.

فالبداية إذن هي مرحلة النقل و إعطاء الأولية للغة على الفكر كما يسميها أو اللفظ على المعنى.(٣) ثم تأتي بعد ذلك عملية تمثل هذه الترجمات من خلال شرحها وتحليلها ونقدها وهي في نظره خطوات كفيلة بتمثل تراث اليونان وفهمه، لأن بداية الألف ميل تبدأ بميل، وكأني بحنفي يريد إقناعنا بأن بداية الاستغراب لا بأس أن تبدأ بالنقل وترجمة أعمال الآخر، ثم بعد ذلك ستأتي مرحلة التمثل حتما ولو عند الأجيال اللاحقة من عمر نهضتنا، وهو طموح مشروع، ولكن يدخل الاستغراب في خانة الترجي والأمل.

(١) مقدمة في علم الاستغراب ص ٢٥.
(٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها.
(٣) م ن، ص ن.

لأن هذا الاستغراب الذي جاء كمفتاح الحل لأسئلة الراهن العربي، قد يعجز عن فتح الأقفال الحديدية التي اعتراها الصدأ عبر كل هذه السنين من عمر هزيمتنا. خاصة إذا علمنا بأن عمر الانحدار أطول من عمر الصعود، فما الذي يمكن رأبه وآيات الإخفاق تغطي المستويين المادي والعقلي؟ هل نبقى ننتظر لعقود قادمة حتى نتمكن من تمثل تراث الغرب ومن ثمة فتح الأقفال؟

إنه من هذا المنظور يصبح علم الاستغراب محاصرا بشروط إيديولوجية تعكس عمق الجرح الذي أحدثه الآخر، رغم أن حسن حنفي لا يتحرج من تحول الاستغراب إلى إيديولوجيا إذ يقول «وإذا استمر السؤال: هل (علم الاستغراب) إيديولوجيا أم علم؟ تكون الإجابة أن هذه التفرقة في الحقيقة لا وجود لها فالإيديولوجيا علم... والعلم الدقيق إديولوجيا»(١).

وهو ما يعارض المنطلق العلمي للمشروع، ويعطل مشروطيته الابستيمولوجية، إذ كيف نؤسس لعلم نجتهد في لملمة موضوعه المتناثر والمتشعب، ونختلس له منهاجا بعد عناء، ثم ندعو ليكون إيديولجيا فهل العلم إيديولوجيا؟ وهل يمكن ببساطة ردم الفجوة الموجودة بينهما؟ أليس حسن حنفي هنا ضد حسن حنفي؟؟ ثم عندما نتصور معه بأنه الاستغراب إيديولوجيا تحرر، فعندئذ لا يصعب على الإطلاق إبراز مدى هشاشة هذه الإيديولوجيا ذاتها، لأن المفترض فيما هو إيديولجي أن يكون موحد لجهود الأمة بكل أطيافها نخبها وعمومها، ولكن المشروع الحنفي لا يملك القدرة على ذلك، بل وكل ما في الأمر أنه مستوحى من تجربة الآخر الاستشراقية، لأن لمسات التأثير بارزة من خلال استعراضه المكثف لمسارات الفكر الغربي والتواءاته ومناخاته، مما يعني أن هذه الطفرة الإستغرابية لا تؤسس لعلم يقدر ما تؤسس لما قبعلمي.

فالمتصفح لكتاب حنفي (مقدمة في علم الاستغراب) يستغرب حقا، كيف تشكلت الفلسفة الغربية عنده وفق مسار تصاعدي مكثف نظرا ونقدا واستشكالا، وصلت ذروته إلى عصر تنويري تلتحم فيه العقلانية مع التجريبية لتنجب حداثة غربية جريئة الطروحات، ثم ليعقبه إنحدار إلى ما ينذر بنهاية الوعي الغربي وقد مثلته مختلف فلسفات ما بعد الحداثة، وكأني به يضع أمامنا كل هذا التراث الغربي ليؤكد لنا سهولة المهمة، ذلك أن المرور عبر براد يغم وعي الآخر ينقلنا في رأيه من حالة الذوبان والمسلوبية إلى حالة العقل المنفتح المتجاوز والمحاور.

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص ٧١.

إلا أن التعامل ينبغي أن يكون بأدوات ومناهج مغايرة لتلك التي استخدمها الاستشراف فتحليل تراث الآخر ونقده يكون أكثر نجاعة بأدوات منهجية مختلفة ومبتكرة لأن المستشرق مثلا كان يتعامل مع شرق متخيل ثابت لا تسري عليه قوانين الحركة التاريخية وبالتالي فهو منفصل عن المتخيل انطولوجيا لا ابستمولوجيا، وهو ما أوقع أغلب القراءات الاسشراقية في ذاتية مفرطة، ما قد يتكرر مع الاستغراب، إذا حكمنا المنطق (الحنفي) رغم أنه يصرح «ظهر الاستشراق قديما إبان المد الاستعماري الأوربي...لذلك يظهر الاستغراب كدفاع عن النفس وخير وسيلة للدفاع الهجوم».[1] لكن الذي يدافع عن نفسه فأكيد قد لحقه شعورا بالظلم والإهانة من الآخر، ولذلك يأتي استغرابه كسلوك انفعالي، والإنفعال قد يكون اضطرابا يعوزه الوعي وهو سلوك فشل كما عبر عن ذلك (جانيه) لتكون النتيجة أن الاستغراب فاشل مند البداية، ما دام يفتقد لعنصر الوعي الذي يوجه الباحث المستغرب، والملاحظ من جهة أخرى أن التراث الغربي الذي هو موضوع الاستغراب قد يشكل عائقا في وجه الباحثين المستغربين حيث من الصعوبة بمكان تناوله ككل لانه تراث متلون متعدد اشكاله مختلفة ومصادره متباينة منها الخفي ومنها الواضح.

وأكثر من ذلك فهو مقسم إلى فروع علمية عديدة، لكل فرع تاريخه ومساره الخاص، فتاريخ الكمياء مثلا ليس هو تاريخ علم الوراثة وهذا الأخير ليس هو تاريخ علم النفس، وهكذا...منقسم كذلك إلى فروع فنية كثيرة، ولكل واحد منها تاريخه ومساره، وكل ذلك يعقد الدراسة أكثر، ويجعل من المشروع مهمة جماعة وليس فرد، مهمة مؤسسات تتمتع بالدعم المادي الكافي و إرادة التحدي، وليست مهمة باحث أو إثنين، «فعندما كان الغرب يدرس الشرق من منطلق القوة والتفوق جعل لهذه الدراسة مؤسسات ترعاها الحكومات وتخصص لها الأقسام الأكاديمية في الجامعات وتمدها بالتمويل اللازم وهذا يفتقده مشروع الاستغراب».[2] ثم أن المستشرقين كان من السهل عليهم الحصول على المادة البحثية والمخطوطات وغيرها بينما قد يكون من الصعب الحصول على هذه المادة في الاستغراب. لأن الغرب لا يمكنه أن يسرب إلينا كل المعلومات المتعلقة به، إنه لا يمدنا إلا بما يريد هو أن نعلمه عنه، فيمدنا مثلا بالأفكار التي تبرز عظمته وكفاءته بينما قد لا يكشف لنا عن تلك التي تبين عيوبه وهفواته، أو تلك

(١) حسن حنفي مقدم في علم الاستغراب ص ٢٤.

(٢) أحمد عبد الحليم عطية وآخرون: جدل الأنا والآخر قراءات نقدية في فكر حسن حنفي دار عبد ربه للطباعة الحوامدية سوريا الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ ص ١٦٠.

التي نعتمد عليها من أجل الإقلاع العلمي والتقني، بل أكثر من ذلك فهو الذي يمدنا بمعلوماتنا عن ذاتنا إلى اليوم وهذه من أخطر المسائل.(١)

ثم أن الحضارة الغربية التي ندرسها في الاستغراب مازالت حسب اعتقادي حية متطورة هي التي تتحكم في المعلومة العلمية والتقنية ولا يمكن أن تسر بها لأي كان، بينما المستشرقون عندما درسوا الحضارة الإسلامية كانت في حالة سكون وجمود، وهذا حتما ما يعقد المسألة أكثر في الاستغراب، ولما كان موضوع الاستغراب من جهة أخرى على هذه الصورة من التنوع والخصوبة، فإنه قد يؤدي إلى ظهور عائق التصنيف والاختيار، فالمذاهب والتيارات والأفكار متداخلة تخرج من رحم بعضها البعض ومرتبطة في الغالب بأسماء شخصيات. على عكس التراث الإسلامي الذي يتكون من اتجاهات أكثر من تكونه من شخصيات. وهذا ما عبر عنه حسن حنفي بنفسه حينما قال بأن هناك «صعوبة التصنيف والاختيار، نظرا لتداخل المذاهب الفلسفية وتولد بعضها من بعض وقسمة بعضها من بعض، وجمع بعضها لبعض كما تفعل الخلايا حين تتكاثر أو تموت..»(٢).

مما يعني لنا الصعوبة التي سيواجهها الباحث في علم الاستغراب، خاصة وهو يقف على كل هذا الكم من التيارات الفكرية والاتجاهات بأسمائها المختلفة وشخصياتها الكثيرة، وهو ما يقود إلى صعوبة أخرى تتعلق بالتاريخ، فيحدث مثلا الخلط بين العصور والقرون، فقد نقابل بين عصر النهضة والقرن السادس عشر مثلا، في حين الحقيقة أن هناك تداخل بين المذاهب والعصور وهذا ما أشار إليه حسن حنفي أيضا حينما قال: «كما تبدو وصعوبة ثالثة في التذبذب بين العصور والتأريخ بالقرون خاصة منذ الخامس عشر حتى العشرين، بعد أن أصبح كل قرن يمثل مذهبا: النهضة في السادس عشر، والعقلانية في السابع عشر، والتنوير في الثامن من عشر، والوضعية في التاسع عشر والوجودية في العشرين وبين المذاهب المتداخلة مع العصور والمعارضة لها..»(٣) وهنا نجد حسن حنفي قارئا لنفسه. بحيث في الوقت الذي يبشر بهذا العلم نجده في الوقت نفسه يضع في طريق المستغرب عوائق يصعب تخطيها وكأني به يشير إلى عقدة النقص عند الأنا أمام الآخر.

---

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص ٥٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٥٦.

ثم إذا افترضنا من جهة أخرى أن اهتمامنا قد زاد وتوسع أكثر بالفكر والتراث الغربي فهل يعني ذلك إمكانية قيام علم جديد؟ وهل ينشئ التأريخ للفكر الغربي علما؟ إن نظرة سريعة على رفوف مكتباتنا حسب اعتقادي كفيلة بإجابتنا على التساؤل. لأن الدراسات والبحوث التي تؤرخ لهذا الفكر كثيرة ومتعددة ومع ذلك لم يتأسس هذا العلم.[١] ولهذا يقول محمود أمين العالم: «والحق أنني لا أجد علما بالمعنى المنهجي الدقيق أو إطارا نظريا محكما، ومنطقا حضاريا دقيقا... فليس ثمة تأسيس لقواعد أو المنهج في هذا الاستغراب».[٢]

بل وكيف يقوم هذا العلم وسط شعور مبهور بعظمة الآخر ومشدود إليه؟ إنه إذا كان موقفنا من التراث الغربي هو صحيح جزء من حركة التاريخ وتطور الحضارة وواجب وطني وهو ضد الإستشراق فالملاحظ إن استغراب (حسن حنفي) هو تأكيد لهذا الإستشراق، فإذا كان الإستشراق قد تعامل معنا تعاملا عنصريا ونظر إلى ثقافتنا من أعلى ومارس علينا مختلف أنواع القهر والاستعباد الثقافي فإن منطق الاستغراب لا يخرج هو الآخر عن هذا الإطار...[٣] «وهذا يعني أن الاستغراب يتماشى مع الإستشراق، لأنه يكرس الخضوع للثقافة الغربية ويعتبرها الثقافة الوحيدة المطلقة إنه لا يؤكد منطق ذلك الإستشراق فحسب، بل ويضفي عليه صفة الإطلاق كمنطق وحيد للعلاقة بين الثقافات الإنسانية المختلفة، وبالتالي فهو خاضع للوعي الأوروبي وللإتجاه العنصري فيه، وضائع فيه قابع أسفل منه من حيث هو يريد اعتلاءه».[٤]

ووجهة النظر هذه تضع الاستغراب في خانة التبعية للغرب وبالتالي تكملة ما عجز الإستشراق عن فعله. فإذا كانت القضايا الفلسفية التي يطرحها الوعي الأوربي هي جوهر الآخر، الذي هو ضد جوهر الأنا فهذا يعني أن هذه القضايا لا تعنينا، ومن ثمة فالاستغراب أيضا لا يعنينا إلا إذا تصورنا أنفسنا جزءا منه، نخضع له رغما عنا، فهو عندئذ يتحول إلى أطروحة استقطابية إيديولوجية لا تفيد الأنا في تقدمه وتطوره الحضاري، ومن ثمة فانبهار الأنا بالآخر يؤدي إلى عكس مطالب هذا الاستغراب، فالمستغرب كأني به يبحث عن صورة الأنا في

(١) انظر عبد الحليم عطية وآخرون: جدل الأنا والأخر ص ٢١٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٧١.
(٣) ناهض حتر: التراث، الغرب، الثورة (بحث حول الأصالة والمعاصرة في فكر حسن حنفي) شقير وعكاشة للطباعة والنشر والتوزيع عمان الأردن سنة ١٩٨٦ ص ١٤٣).
(٤) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

وعي الآخر أو صورة الآخر في وعي الآنا، وفي الحالتين هو الذي يخسر المعركة بسبب ضياعه في الآخر، وبالتالي فقدان القدرة على الاسقلالية من هيمنته ومركزيته، وربما بعبارة أوضح يكون الاستغراب دعوة لتأليه الغرب وجعل سيطرته مطلقة فالموضوع المدروس هو تراث الآخر وآلية الدراسة هي آلية غربية وهو ما يعني حتمية ألانجذاب إلى هذا الآخر، بل ويعزز الوهم الإستشراقي لدى الأنا بأنه مجبول على الدونية واللاعقلانية، وبالتالي فالعقلانية العلمية هي شأن أوروبي خالص».[1] والخوف عندئذ أن يؤدي هذا إلى الإستسلام لهذا القدر المحتوم، فيبقى الأنا قابعا راضيا بتخلفه فلا هو يستطيع تمثل تراث الآخر، ولا تراثه، مما يعني أن الغرب هو الفاعل في المرتين سواء في الإستشراق أو الاستغراب. ونقتنع عندها بأن ضعف الأنا ما هو إلا من فعل الآخر، ونلقي على كاهله مسؤولية أزماتنا الأمر الذي يساهم في تأبيد التباين بين الشرق والغرب وترسيخ الصورة النمطية التي رسمها الإستشراق التقليدي.

وربما أقسى ما تعاني منه مجتمعاتنا الإسلامية اليوم هو هذا التوجس الدائم من شبح الآخر الأمر الذي خلق الشعور بالدونية لديها، فإما أن تدخل في حالة انبهار تام بعلوم الغرب ومناهجه وثقافته، و إما أن تنكفئ على نفسها مفضلة النكوص والهروب إلى الداخل لتحتمي بتراثها، وفي الحالتين تعلو صورة الغرب المتفوق وتتنمط في ذهن الأنا كأيقونة أبدية، فيتكرس مبدأ الاختلاف، وتطفو القطيعة على السطح، فالآخر يمثل رمز القوة والحضارة وهو المركز، بينما الآنا رمز الضعف وهو الهامش. وعندها لا معنى لدعوات الحوار الحضاري أو الديني على الاطلاق، لأن الحوار يفترض أن يكون بين طرفين متكافئين يستمع أحدهما للآخر، أما إذا كان أحدهما آمرا والآخر سامعا فهذا حوار السيد والعبد.

منهج الاستغراب وتبرير العجز

يحاول حسن حنفي في مشروعه أو بالأحرى في علمه أن يستلهم منهجا من ثقافة الآخر. وهو المنهج الشعوري أو الفينومينولوجي. مبررا دلك بعدم قدرة الأنا بعد على ابتكار مناهجها الخاصة بها .وراح يسرد على امتداد صفحات من كتابه مقدمة في علم الاستغراب مبررات هذا اللجوء الاضطراري إلى الآخر تارة من خلال تشكيكه في المناهج الإستشراقية التي في رأيه لم تراع النزاهة والموضوعية العلمية.وتارة بحجة أن المنهج الشعوري هو الأقدر على

---

(١) انظر هشام عصيب (تجديد العقل النهضوي ص١٣٤).

دراسة هكذا تراث. وكلمة شعور في حد ذاتها كلمة عامة ليست وقفا على ثقافةمعينة.بل هي موجودة في تراثنا. ثم من ناحية أخرى الفلسفة الظواهرية كما يرى تمثل قمة الوعي الأوروبي ولدلك لا مانع عنده من محاولة تسلق هده القمة واختطاف سر تفوقها وهو آلية الدراسة .و يعود طورا آخر إلى إشعارنا بصغرنا. كمحاولة أخيرة لالتماس الشفاعة باللجوء إلى هدا المنهج. إذ في اعتقاده مازالت الأنا عاجزة عن إبداع مناهج قادرة على دراسة ثقافة الغرب المتعددة والمتلونة.تماما كما لجأ الأسلاف إلى الثقافة اليونانية فاستلهموا منها القياس الأرسطي. مما يعني حسبه أن التأثر بالثقافة المهيمنة يعد أمرا طبيعيا وبالتالي التسليم منطقيا بضعف الأنا والرضا بالقدرية الطبيعية.

واعتماد (حسن حنفي) للمنهج الظاهراتي ثم بعد ما رأى بأن المناهج الاستراقية كالمنهج التاريخي، والتحليلي، والإسقاطي والأثر والتأثر، تشوه الظاهرة المدروسة ولا تقف على حقيقتها، وبالتالي عدم قدرتها على تحقيق الموضوعية التي تتطلبها الدراسات العلمية، ولذلك كان الموضوع المدروس في حد ذاته سواء التراث الإسلامي أو التراث الغربي في حاجة إلى منهج شامل ومتكامل، منهج كما يصرح بنفسه: «يبدأ من التجربة الحية التي تكون في الواقع... وفي نفس الوقت يصف الماهيات المستقلة ويتجه نحو المعاني...»[١] وحتى وإن كان هذا المنهج عنده من وحي الثقافة الغربية إلا أن كلمة الشعور كلمة شائعة ليست حكرا على أحد، بل دخلت مخزوننا النفسي كما رأى كالكثير من الكلمات التي أصبحت تراثا إنسانيا مشتركا، لذلك فطبيعة الموضوع هي التي تفرض عليه هذا المنهج. إن التكامل الذي يوفره منهج تحليل الخبرات في الشعور هو الذي جعل (حسن حنفي) يعتمد عليه في دراسته للتراث الغربي، ويستبعد في المقابل، المناهج التي أوجدتها الوضعانية، لأنها لا تركز إلى على الجوانب المادية، وهو ما يتعارض وطبيعة الموضوع المدروس الذي ينطوي على طبيعة مثالية أيضا.[٢]

من هنا كان المنهج الظاهراتي حسب رأيه الأنسب لدراسة هكذا موضوع لأنه يتجاوز الواقع المادي ويذهب بعيدا إلى ما وراء الظاهرة، يجمع قدر الإمكان بين التحليل الماهوي والوصف التاريخي، أما أسماء الأعلام والعصور والمذاهب فيمكنها أن تظهر على طريقة

---

(١) حسن حنفي: من النص إلى الواقع (محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه)، ج١، تكوين النص الدار الإسلامي، بيروت، لبنان ط١، ٢٠٠٥م، ص١٧.

(٢) حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان الطبعة الخامسة سنة ٢٠٠٢ ص ٧١.

الاستشراق، أي لها إطارها الزماني والمكاني وينطبق عليها ما ينطبق على مختلف الحوادث التاريخية.[١] لذلك يعتبره منهجا شائعا اليوم في العلوم الإنسانية، وهو الذي مكنها أكثر من فهم الظواهر دون الاقتصار على تفسيرها، لأنه بحكم طبيعة هذه الظواهر فهي في حاجة إلى منهج جامع يتجاوز التفسير إلى الفهم.

وانطلاقا من هذا فالتراث الغربي بحكم حركيته المستمرة وحيويته لا ينبغي حسبه أن يقابل بمناهج ميته تفقده هذه الحيوية، بل لابد من منهج يعيش فيه الباحث هذه الحركية، فيرجع الظاهرة المدروسة إلى أساسها في الشعور كتجربة مباشرة تحكمها أصول فكرية.[٢]

وهكذا فالمنهج يعد آلية ووسيلة فقط يمكن استعارتها من أي ثقافة كانت، ففلاسفة الإسلام الأوائل تأثروا بالمنهج الأرسطي، كذلك يمكن لباحثينا اليوم كما يرى استلهام الآليات والمواقف من ثقافة الآخر، بشرط أن لا يقود ذلك إلى مجرد التقليد بل عليهم أن ينطلقوا منها إلى الإبداع. تماما كما تمكن أسلافنا من الإبداع بتجاوزهم (لأرسطو) و(أفلاطون) ولذلك كانت الفلسفة الإسلامية ليست مجرد نقل وترجمة بل خلق وإبداع، ففي الوقت الذي تأثرت فيه بالثقافات الأخرى كانت أيضا تنطوي على عوامل ذاتية تدعو إلى العقل والتأمل.[٣]

فرغم أن هذا المنهج إذن قد ظهر في الثقافة الغربية، إلا أنه مع ذلك يمكن تطبيقه عند دراسة هذه الثقافة نفسها، إنه «النظرية الوحيدة الممكنة في التفسير، وذلك لأن فهم النصوص لا يتأتى إلا بإرجاعها إلى مصدرها في مجموع الخبرات الحية التي نشأت فيها»[٤] وهو يعني بذلك أن الباحث لا يمكنه فهم النص أو أي موضوع يدرسه إلا من خلال معايشة له في حياته اليومية، لذلك كما يرى ظهر هذا المنهج بصور مختلفة في شتى العلوم الإسلامية، فالمثل الفقهي هو تعبير عن موقف إنساني يعيشه المكلف، والقياس هو تحليل عقلي للخبرة الشعورية، والطريق الصوفي هو تحليل خبرات الصوفي وما يختلج بداخله.[٥]

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص ٧٨.

(٢) حسن حنفي: قضايا معاصرة (في فكرنا المعاصر) دار الفكر العربي القاهر مصر الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٧، ص ١١٩.

(٣) عمر التومي الشيباني: مقدمة في الفلسفة الإسلامية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٠، ص، ص٩٧، ٩٨.

(٤) حسن حنفي: قضايا معاصرة (في فكرنا المعاصر) ص ١٨٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٨١.

وهذا في رأيه ما يبرر اعتماد المنهج الشعوري في دراستنا للوعي الأوربي، ومن دون أن يكون ذلك تعبيرا عن العجز في إيجاد آليات خاصة بنا، بل وحتى دراسة هذا الوعي لا يمكن أن يقوم بها إلا وعيا آخر، وذلك من أجل إحداث انفصال بين الذات والموضوع وبالتالي تحقيق الحياد والموضوعية والدقة، وهي الشروط التي يتطلبها العلم، ويمكن للأنا في هذه الدراسة عنده أن يستعمل ثقافة الآخر كأمثلة وكمادة تحليلية لأنها حاضرة في وعيه، إلا أنه بالإمكان التحرر منها وتجاوزها عبر تحليلها في الأنا نفسه، لأن التحرر والتخلص من الشيء لا يكون إلا بالشيء نفسه.(١)

ورغم علم (حسن حنفي) بأن مثل هذه الدراسات قد قام بها مفكرون غربيون أنفسهم إلا أنه يرى بأن الدراستين مختلفتين، لأن دراسة الآخر لنفسه هي من النقد الذاتي، بينما الاستغراب رؤية الآخر بمنظور الأنا، أي أنه صناعة محلية ومنتوج الأنا وليس نقد الآخر، ومهما كان الأمر فرؤيتنا لأنفسنا تختلف عن رؤية الآخر لنا.

وكما يحاول (حسن حنفي) تجاوز مناهج المستشرقين يحاول أيضا تجاوز مناهج التفسير التي عرفها تراثنا القديم من خلال اعتماد هذا المنهج الجامع الذي يبدأ من الواقع الشعوري الذي يقدم لنا التجارب الحية التي يقوم العقل بتحليلها ليصل إلى معاني النصوص التي يمكن إدراكها بالحدس، وهو الحدس الذي حدث له في مقتبل العمر وظل موجها له في كل كتاباته.(٢)

إذن هذا هو المنهج الذي يراه (حسن حنفي) صالحا لدراسة الحضارة الغربية والذي ينطلق من الحكمة الإشراقية القديمة (إعرف نفسك) ولذلك فكل تجاوز لهذه الحكمة، أو للذات يعد ابتعادا عن اليقين في نظره. إلا أن السؤال المطروح، هل يمكننا حقا دراسة التراث الغربي دراسة موضوعية بواسطة هذا المنهج؟

لقد اجتهد (حسن حنفي) في الحقيقة في دراسة التراث الغربي بعرضه وتحليله بغرض معرفة الاتجاه العام والقصد الكلي للوعي الأوروبي بالاعتماد على هذا المنهج الشعوري، ولكن منذ متى كانت المعرفة شأنا ذاتيا وإشراق صوفيا أو شعوريا؟ ولما تكون شعورية خالصة؟ وهل اليقين هو ما يتبدى في الشعور فقط؟

إن هذه التساؤلات تحيلنا إلى النقائص التي يمكن تسجيلها على هذا المنهج كما رأى

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص ٣٧.

(٢) حسن حنفي: التراث والتجديد، ص ص١٨٥، ١٨٦.

(جورج طرابيشي) خاصة إذا إعتمدناه في دراسة تراث متلون ومتعدد الإتجاهات والتيارات، بل ومتباين في الظروف المحيطة به ومالتذبذب الذي أشار إليه (حسن حنفي) حسبه إلا تأكيدا لهذه الحقيقة وهو من أجل ذلك نراه يميل في مواضع أخرى إلى المنهج الجدلي ويعتبره النهج الوحيد المقبول.[1] وهذا في رأيه يعد تناقضا إذ كيف نسلم في مواقف بالمنهج الشعوري وفي مواقف أخرى بالنهج الجدلي، رغم أن الموضوع المدروس واحد هو الفكر العربي، ويعتمد (طرابيشي) في بيان هذا التناقض على مقتطفات من أقوال (حسن حنفي) منها قوله: «المناهج العقلية والتجريبية والوجدانية كلها صورية... منعزلة عن الواقع» بينما كما يضيف «المنهج الجدلي الذي هو حركة الواقع نفسه، هو المنهج الباقي أمامنا»[2].

لكن إذا كان (حسن حنفي) يصرح بنفسه في مقدمة كتابه: قضايا معاصرة (بجزأيه) قائلا: «قد غلب على الجزئين منهج واحد وتحليل واحد، بالرغم من اختلاف المجالين والموضوعين، وهو المنهج الشعوري الاجتماعي».[3]

فإن الأمر في اعتقادي ومع هذا التباين في المنهجين يعود إلى التنوع في الموضوع المدروس ذاته، ذلك أن فيه ما يتطلب عند دراسته، المنهج الجدلي، وهناك ما يتطلب المنهج التاريخي، وهناك ما يتطلب المنهج الشعوري وهكذا. فالحضارة الأوروبية في حد ذاتها مازالت في نمو وتطور ولم تسر عليها ربما بعد أحكام (سبنجلر Spengler)[4] وهذا يعني أن استخدام منهج معين وثابت في دراسة هكذا موضوع يكون أمرا صعبا.

وقد أشار (حسن حنفي) بنفسه إلى هذه الصعوبة حيث يقول: «ويمكن إجمال أوجه القصور في هذه المقدمة في علم الإستغراب في عدة نقاط أساسية: التذبذب المستمر بين التحليل والمادة العلمية، بين العلم الجديد والمعلومات القديمة...»[5].

---

(١) جورج طرابيشي: المرض بالغرب ٢، ازدواجية العقل دراسة تحليلية لكتابات حسن حنفي دار بتر للنشر والتوزيع دمشق سوريا الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥، ص ١٢.

(٢) المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

(٣) حسن حنفي: قضايا معاصرة (في فكر المعاصر) مقدمة الطبعة العربية الأولى.

(٤) أوزقلد سبنجلر، oswald spengler، ١٨٨٠-١٩٣٦م ولد في مدينة (بلاكنبورغ) ودرس في جامعة ميونيخ وبرلين، تخصص في العلوم الطبيعة والرياضية، كانت رسالته للدكتوراه عن (هير قليطس) عام ١٩٠٤، اشتهر بكتابة (انحلال الغرب).

(٥) حسن حنفي: مقدمة في علم الإستغراب، ص ٥٥٤.

إلا أن هذه الصعوبة، رغم ما تحدثه من تذبذب في التحليل فإنها لا تعنى عدم القدرة على دراسة التراث الغربي، و إلا فكيف نفسر ظهور دراسات تؤرخ لهذا التراث، و إذا كان هناك من يلوم (حسن حنفي) على آلية الدراسة بحجة أنها آلية غربية تجعل من دراسته مجرد تأريخ غربي للوعي الغربي[١]. فإن البديل كما يبرر هو بنفسه غير موجود عند الأنا. لذلك يقول: «بالرغم من أن علم الإستغراب يعبر عن رغبة الأطراف في الاستقلال الفكري والعلمي والحضاري عن المركز، إلا أنه سيظل باستمرار دائرا في فلكه لأنه يستعمل مناهج ويتعامل مع موضوعات كلها نابعة من الغرب... ولكن تدريجيا يمكن الانتقال من هذه الدوامة إلى خارجها، جيلا بعد جيل حتى يصبح للأطراف مناهجها»[٢].

وهذا يعني حسب (حسن حنفي) أن الأمل موجود في قدرة الأنا مرة أخرى على ابتكار مناهج خاصة بها، ويومها ستكون حتما الدراسة أكثر دقة وموضوعية، ولكن على الأقل في نظره القيام بخطوة أولى اليوم حتى تكون أرضية للأجيال اللاحقة.

ومن هنا تكون الحاجة في هذه المرحلة الأولى إلى منهج جامع، لأننا لسنا أمام ظاهرة فزيائية محددة يمكن دراستها بطريقة استقرائية، إننا أمام ظاهرة إنسانية متغيرة، أسبابها متعددة، جوانبها مفتوحة على التاريخ والسياسة والاقتصاد وغيرها، ومن ثم فمن الصعوبة بمكان أن نعتمد منهجا واحدا محددا وندعي بعدها تحقيق الدقة والموضوعية، وهو الأمر الذي تنبه إليه (حسن حنفي). ثم لنفرض أننا جارينا (حنفي) في استلهام هذا المنهج هل نحن قادرون فعلا على استيعاب مكونات الفكر الغربي ودراسة نظمه المعرفية على نحو لا يفقدنا أصالتنا وهويتنا الثقافية؟ وما مدى استيعاب فكرنا العربي الحديث للتحديات التي يطرحها اليوم الفكر الغربي خاصة ونحن نعلم انتكاسة العقل العربي راهنا بعد خيبة الشعوب والنخب في أنظمتها؟ بل وما ذا بقي من تنوير وعقلانية جيل النهضة في سماء الفكر العربي، غير خطاب التكفير والترهيب ونشر لغة الحكي والأسطرة، فهل بهكذا تفكير يمكننا تحليل الفكر الغربي؟ إن الهوة عميقة يا (حنفي) ومن الصعب ردمها، بل وتغدو الكتابة في مشروع الإستغراب قفزة في المجهول إذا إستثنينا مجرد التأريخ والتوصيف للفكر الغربي، ومن ثمة فالإنخراط في مغامرة -الاستغراب- بهدف تغيير واقع الأنا واللحاق بركب حضارة الآخر، ما هو إلا محاولة لتحريك السواكن.

(١) انظر أحمد عبد الحليم عطية وآخرون، جدل الأنا والآخر، ص ١٧١.

(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص ص، ٧٨، ٧٩.

ولعل حنفي نفسه يدرك شساعة البون بين الأنا والآخر، ورغم ذلك يحاول القفز على هذه الحقيقة، وكأنه سئم الانتظار الطويل، والليالي الليلاء من عمر حضارتنا، وفي ذلك تعبير عن قلق وجودي كبير يعكس حجم الشعور بالإغتراب عنده، وحجم الإنكسار في آن واحد، بل وأكثر من ذلك نزوع نحو الإستعلاء من جديد فيتحول بالتالي الإستغراب من فلسفة للتحرر إلى فلسفة للإستعلاء ومركزية الأنا، وهو في الوقت الذي جاء من أجل تفكيك مركزية الآخر.

خاتمة

إن طموح التغيير مشروع، والعمل والبناء النهضوي من وحي ثقافتنا ولكن ليس من أجل إلغاء الآخر، فعلينا أن نجعل من نقدنا للفكر الغربي ممارسة عقلانية، ونمطا فكريا استنطاقيا وتفكيكيا، ليضعنا في صلب المساءلة الحضارية التي تفترض حتما لغة الحوار والتسامح مع الآخر المختلف، خاصة إذا علمنا أن الأنا في حد ذاتها ليست مبتورة بالواقع، الذي يتقاطع فيه تراثها من جهة وثقافة الآخر من جهة أخرى، وإذا كان الإستغراب عند (حنفي) يعد موقفا من الغرب، فهو رغم إيديولوجيته يمثل في رأيي استمرارا لموقف رواد النهضة، يؤسس لعلم جديد يهتم بدراسة التراث الغربي أو ثقافة الغرب، ويعتمد منهجا فينومينولوجيا من وحي هذه الثقافة الغربية نفسها- وقد برر حنفي سبب استلهامه- وفي هذا كما رأينا يعد تماهيا مع الدراسات الاستشراقية ولكنه مشروع طموح رغم نقائصه، إذا تحول إلى مشروع أمة بكاملها تتوق إلى التحرر وفك عقدة النقص، وجعل التاريخ يسري عليها بدل أن تكون خارجه، لأن عمر الحضارات ليس استاتكيا كما يؤكد فلاسفة التاريخ، ولعل عندئذ الشمس تشرق من جديد ونشهد انبعاث حضارة الأنا من تحت الردم. وقد بدأت بالفعل بوارق هذا الأمل في الظهور من خلال الحراك الذي تعيشه هذه الأنا عبر امتداداتها الجغرافية.